الانكشارية ودورهم في الدولة العثمانية حتى سنة ١٨٢٦

احمد محمود علو السامرائي **محمد حمزة حسين الدليمي**
قسم التاريخ / كلية التربية
جامعة تكريت

الاستلام **القبول**
٠٧ / ٠٩ / ٢٠٠٩ **١٠ / ١٢ / ٢٠٠٩**

الملخص

كانت قوات الانكشارية احد عناصر الجيش العثماني الاساسية، واحد نقاط القوة في بعض الفترات، إلا ان مجيء سلاطين ضعفاء للحكم واندماج قوات الانكشارية في المجتمع العثماني – الذي اثر على طبيعتهم العسكرية – وتمركز المراكز الحساسة للدولة بايدي كبار قادة الانكشارية، ادى الى تدهور الدولة العثمانية عموماً وضعفها في مواجهة اعدائها، الذي انعكس بطبيعة الحال على اوضاع الدولة العثمانية في اغلب اقاليمها، مع جعل بعض السلاطين يحاولون اعادة النظر في تدهور هذه الاوضاع والتخلص من الانكشارية، الى حين تمكن السلطان محمود الثاني من ذلك عام ١٨٢٦.

Abstract

The Janissary forces were one of the main constituents of the Ottoman army and, at certain periods, a strong component of the army. However, weak ottoman sultans and the Janissary forces being mixed with the ottoman society ultimately led to the decline of the Ottoman Empire. This state of feebleness led later ottoman sultans to reconsider the causes of this downfall and to get rid of the Janissary forces. In 1826, Sultan Mahmoud 2^{nd} was finally able to drive the Janissary away.

الانكشارية ودورهم في الدولة العثمانية حتى سنة ١٨٢٦

لعب الانكشارية[١] دوراً كبيراً في عصر بناء الدولة العثمانية وتوسعها، حيث ان ظاهرة التوسع التي نشطت لدى الدولة العثمانية منذ البواكير الاولى لظهورها جعلها في تطور مستمر مع استحداث السبل من اجل هذا التطور.

ان احد الاهداف الرئيسية لتشكيل هذا الجيش هو لمواصلة القتال ضد البيزنطيين، وتحرير المزيد من اراضيهم بهدف نشر الاسلام، وكذلك الاستفادة من شبانهم بعد ان يتلقون تربية اسلامية عسكرية[٢]. وقد وضع السلطان اورخان (١٣٢٦/١٣٥٩) القواعد العسكرية التي تقوم عليها حياة الجيش الانكشاري، حيث كانوا يخضعون لنظام عسكري صارم، ويستخدمون الاسـلحة بمهـارة كبيرة[٣]. ومن الجدير بالذكر ان الحكم العثماني في طبيعته هو حكم عسكري، حيث ساد القول ان الدولة العثمانية والجيش العثماني هما وجهان لعملة واحدة[٤].

اولاً: أثر الانكشارية في المجال العسكري والسياسي

توسعت تشكيلة الجيش العثماني بعد دعمها بفرقة السباهية وارتقاء رجالهـا الـى اعلـى المناصب العسكرية والسياسية ومنهم طبقة خاصة تحيط السلطان الذي يشعر من جانبـه بـالقوة والامان في وجودهم[٦]، ومكنت القوات الانكشارية السلطان محمـد الاول (١٤٠٢/١٤٢١) مـن التفوق على الجماعات التي ساندت اخوته (سليمان وعيسى) المطالبين بالعرش، على الرغم مـن حصولهم على دعم قوات عثمانية اخرى إلا ان الانكشارية كانت لهم الريادة الاولـى فـي حـسم القرار[٧].

هيمن الانكشارية على مقدرات الدولة العثمانية حيث تركزت جهودهم لاسـتعادة الاقـاليم التي انسلخت من الدولة في اسيا الصغرى ونتيجة لتسلطهم على حكومة السلطان محمد الاول فإنه لم يعجب عدداً من الناس حيث حدثت ثورة شعبية تزعمها (بـدر الـدين) وهـو مـن العلمـاء المشهورين وانتشرت دعوته وتبعه عدد كبير من الناس، وقد استطاع الجـيش الانكـشاري مـن الحاق الهزيمة بالثوار في (قره بورنو) ومطاردة زعيم الثورة وقتله عام ١٤١٧[٨].

حدث اول تمرد عسكري للانكشارية عندما تنازل السلطان مراد الثـاني (١٤٢١-١٤٥١) عن العرش لابنه السلطان محمد الثاني (الفاتح) (١٤٥١-١٤٨١) حيث اسـتهانوا بـاوامره ولـم يعجبهم هذا الامر واستطاعوا السيطرة على ادرنة ونهبوها مما ادى الى رجـوع الـسلطان الـى

العرش والقضاء على التمرد والقيام باصلاحات عسكرية عديدة منها توسيع فرقة الانكشارية بالحاق العديد من النصارى – معظمهم من الصرب – الذين اسلموا وزاد هذا الامر في حنق الانكشارية ومخاوفهم[٩].

وتمثل الانكشارية في عهد السلطان محمد الثاني بقطعات الصاعقة في الجيش العثماني وكان طعامهم ولباسهم احسن من باقي الجيش،وكل ذلك يكون على نفقة الدولة وهذا ما جعلهم عندما قلت الحروب والفتوحات العسكرية يستغلون هذا الامر في تمردهم على الدولة والسلطان العثماني[١٠].

وبعد فتح القسطنطينية ١٤٥٣ وتغير اسمها الى استانبول اصبحت منذ ذلك اليوم عاصمة الدولة العثمانية بدلاً من ادرنة التي كانت عاصمة السلاطين الذي سبقوا السلطان محمد الثاني (الفاتح) وانيطت مهمة السيطرة على المدينة الى الجيش الانكشاري، وتم تعيين اغا من الانكشارية لقيادتهم، واحكمو سيطرتهم على عاصمة الدولة الجديدة[١١]، واصبح امراء الجيش الانكشاري في استانبول يسمون (اغوات الداخل – إيج اغالاري) وفي الخارج (اغوات الخارج) وتم ربط الادارة في كافة الولايات بادارة الانكشارية، وكانوا يرتبطون مباشرة بالسلطة المركزية في العاصمة[١٢]، وتمتعوا بنظام قوي يقوم على مبدأ السلطة المطلقة في الادارة العسكرية للتقسيمات التي تم تنظيم العاصمة العثمانية فيها بإطار عسكري[١٣]، وتمثلوا بالقوة العظمى في الجيش العثماني واصبحوا يد الحكومة في مختلف اقاليم الدولة، واصبح وجودهم يحاط بامتيازات ومراسيم خاصة، ولهم الحق في التقدم على بقية القوات ويتلقون اوامرهم من الصدر الاعظم الذي جعله السلطان على رأس القيادة العليا للجيش العثماني[١٤].

اهتم العثمانيين بتثبيت حامية من الانكشارية في مركز كل ولاية، وتكلف بوظيفة حماية الامن وجمع الضرائب وتم تجريد الوالي من تعيين اغا الانكشارية لجعل كل منهما مستقلاً عن الاخر واقامة نوع من التوازن بينهما، إلا انه اصبح له الحق في تشكيل فرقة من الجنود المحليين وتكون من المرتزقة او من العشائر الموالية التي حصلت على امتيازات مالية مقابل الخدمة العسكرية. وبعد وفاة محمد الثاني قام الانكشارية بتمرد ادى الى مقتل الصدر الاعظم محمد باشا قره ماني ونهب العاصمة استانبول[١٥].

اخذ اتجاه الانكشارية يسير في طريق اخر، وذلك عندما تدخلوا في تعيين السلاطين مع اخذ الاعطيات السلطانية لقاء مواقفهم. واصبحت صيغة متبعة عندهم عند تولي اي سلطان جديد العرش، وبلغ بهم الحد الى عدم المبالاة بقرارات السلطان[١٦]، واجباره عن التنازل لصالح احد

اولاده وهذا ما حدث مع السلطان بايزيد الثاني (١٤١٨-١٥١٢) عندما اجبـروه عـن التنـازل لصالح سليم الاول (١٥١٢-١٥٢٠) حيث وجدوا فيه الامل المرتجى في بعث الدولة مـن جديـد ودفع حركة الفتوحات الى الامام، فضلاً عن إعجابهم بمهاراته العسكرية التي اظهرها في محاربة الصفويين[١٧]، وهي اول مرة يحدث فيها هذا الحدث حتى ان سليم الاول قام بتوزيـع المكافـأت المالية على الانكشارية.

ونتيجة لاستجابة السلطان سليم الأول لطلب اهل الجزائر لنجدتهم من غـزوات الاسـبان والبرتغاليين، اصبح للانكشارية دور مهم وفعلا خارج حدود الدولـة العثمانيـة[١٨]، وأصـبحوا عنصراً فعالاً وبارزاً في سير الاحداث خاصة بعد ان كثر ارسالهم الى تلـك الاقـاليم، وسـمح للرعايا العثمانيين المسلمين في السفر الى الجزائر ومنحهم الامتيازات المقررة للفيالق الانكشارية تشجيعاً لهم للانضمام الى صفوف الانكشارية ومحاربة الخطر الاوربي[١٩].

وكان للانكشارية دور كبير في الاسطول العثماني فكان على كل قادس (اكثر انواع السفن استعمالاً) من ستة الى عشرة ضباط وعدة عشرات من الجنود، وهم الذين يهجمون علـى العـدو بمصادمة سفينته، بعد ان تكون المدافع قد احدثت فيها ضرراً كبيراً. وعنـدما يكونـوا معبئـين للحرب فإن وظيفتهم تتمثل في حفظ الامن بالعاصمة استانبول ومرة في الاقاليم[٢٠].

وعندما جاء السلطان سليمان القانوني (١٥٢٠-١٥٦٦) اصدر قانوناً بعدم وجوب خروج السلطان العثماني الى الحملات العسكرية، واجاز للجيوش العثمانية ومنهم الانكشارية بالقتال تحت امرة قائدهم الاكبر[٢١]. وهكذا لم يشهد المجال العسكري في عهد السلاطين الذين خلفوا سـليمان القانوني اي توسع عسكري كبير يستحق ذكره، حيث انهم وبسبب التغيير الذي حدث في خـروج السلطان الى ساحة المعركة، استطاع الانكشارية ان يتمردوا على اوامر قائدهم العسكري اكثر من مرة.

وبعد وفاة سليمان القانوني اتخذت تمردات الانكشارية طابعاً مختلفاً، بحيث اخذوا يتحدون سلطة السلاطين والصدور العظام، فهم لم يسمحوا لسليم الثاني (١٥٦٦-١٥٧٤) باعتلاء العـرش حتى يدفع لهم الاعطيات[٢٢]، وفي تطور خطير اصبح للانكشارية دور في تحديد مـصير كبـار الدولة في عهد السلطان مراد الثالث (١٥٧٤-١٥٩٥)، فقد تم قتل الدفتر دار وبكاربك الروملـي امام عجز السلطان عن حمايتهم[٢٣]، وكان ذلك عام ٩٩٨هـ/١٥٨٩م في الحادثة المعروفة باسـم (واقعة البكاربك Bay lerbey Vaskasi)[٢٤].

وفي عهد السلطان عثمان الثاني (١٦١٨-١٦٢٣) فقد عمد حال توليه العرش الى القيـام ببعض الاصلاحات، اذ كان يؤمن بحاجة الدولة الى تبديل نظامها في المجـالات كافـة بالقيـام باصلاحات جذرية[٢٥]، وكان عثمان الثاني قد تعلم تعليماً جيداً، وكان يعرف الفارسـية والعربيـة قراءة وكتابة مثل التركية، كما كان فارساً جيداًويتقن استخدام السلاح، كان يفكر بالقيـام باعمـال عظيمة، لكنه كان مغروراً ولا يعطي اهمية للتجربة ويصر على قراراته الخاطئة أحياناً[٢٦].

بدأ عهده بتعطيل حانات الخمر، وقفل ابوابها وطرد اصحابها، كما بذل جهوداً لاصـلاح الجيش، لاسيما انه شاهد بنفسه نقاط الضعف في جيشه اثناء حصاره لقلعة (خو تين) البولونية عام ١٠٣١هـ/١٦٢١م[٢٧]، فقد اجبره الانكشارية على توقيع الصلح مع بولوندا وايقاف الحرب، ممـا اغضب السلطان فعزم على تصفية قوات الانكشارية[٢٨]، ولاجل الاستعداد لتنفيذ ما عزم عليه أمر بحشد جيوش جديدة في الولايات الاسيوية من الدولة العثمانية واهتم بتدريبها وتنظيمها[٢٩].

ولما عزم السلطان عثمان الثاني على اداء فريضة الحج منعه الانكشارية كمـا اعتـرض العلماء على ذلك ايضاً، وكان هدف السلطان من ذلك الوصول الى دمشق ليقـود جيـشاً، كـان الصدر الاعظم دلاور باشا قد وعده بجمعه قرب المدينة، م يعود ليقضي على الانكشارية ويعيـد تنظيم الحكومة من جديد[٣٠].

وقد اصدر شيخ الاسلام سعد الدين افندي الذي تولى المشيخة مـرتين (١٦١٥-١٦٢٢م) و (١٦٢٣-١٦٢٥م) فتوى بعدم لزوم اداء السلطان عثمان الثاني الحج، إلا انه لم يلتفت لكلامـه مما جعل شيخ الاسلام يثير الانكشارية عليه[٣١]، ومن المعروف ان اي عـصيان عـسكري فـي التاريخ العثماني لا يؤيده العلماء كان بامكان السلطان اخماده ولم يحـدث ان اسـتطاع الـسلطان اخماد عصيان عسكري ايده العلماء[٣٢].

هذا الاصرار من جانب السلطان جعل الانكشارية يجتمعون في ميدان الخيل (آت ميداني) ويطالبون برؤوس مربي السلطان عمر افندي والصدر الاعظم دلاور باشا وغيرهم على اعتبـار ان السلطان يسير بمشورتهم[٣٣]، ولما لم يجبهم السلطان الى طلبهم هجموا على هؤلاء المطلوبين وقتلوهم، ثم عزلوا السلطان عثمان الثاني وسلموه الى داود باشا[٣٤]، الذي القى به في سجن يـدي قوله (Yedi Kule) حيث ازهقت روحه هنالك على يد الانكشارية[٣٥].

عرفت تلك الواقعة في التاريخ العثماني بأسم (هائلة عثمانية) وقد كان رد الفعل على تلك الحادثة عظيماً فقد اضطرب الاناضول وانتشر التذمر حتى وصل الى سورية والعراق، فظهر في كل ولاية من يطالب بدم السلطان عثمان الثاني، وهو اول سلطان من بني عثمان يقتل علـى يـد

الانكشارية، وانتشرت الرهبة من جراء مقتل السلطان عثمان الثاني في مؤسسات الدولـة وعـلا شأن الانكشارية فأخذوا يولون الوزراء ويعزلونهم[٣٦].

لم يكتف الانكشارية بهذا بل انهم عزلوا مرة اخرى السلطان مـصطفى الاول (١٦٢٢-١٦٢٣م) وولوا مكانه السلطان مراد الرابع (١٦٢٣-١٦٤٠)، وفي عهده اقدموا على قتل الصدر الاعظم داماد حافظ باشا (تولى الصدارة في ١٦٢٥-١٦٢٦ و ١٦٣٢م) بعـد ان تمـردوا عـام ١٠٤٢هـ/١٦٣٢م واجبروا السلطان على تولية الداماد رجب باشا صدراً اعظماً، على الرغم من ان السلطان مراد الرابع كان يسميه رئيس الاشقياء[٣٧]، وقد واجههم السلطان باجراءات صـارمة وقتل الكثير من زعمائهم، ثم عمد الى قتل كل من ثبت عليه انه شارك في التمرد ولـو مـشاركة بسيطة[٣٨].

ومع هذا استمر الانكشارية في تمرداتهم على عهد الـسلطان ابـراهيم (١٦٤٠-١٦٤٨م) وكان لهم دور في عزله، كما تمردوا على السلطان مصطفى الثاني (١٦٩٥-١٧٠٣) واجبـروه على التنازل عن العرش، واستمرت تمردات الانكشارية في القرن الثامن عشر والربع الاول مـن القرت التاسع عشر واصبحت خطراً يهدد الدولة، مما اضطر السلطان محمود الثـاني (١٨٠٨-١٨٣٩م) للقضاء عليهم نهائياً ١٨٢٦م[٣٩].

ان تجاوزات الانكشارية وتمرداتهم لم تقتصر على مركز السلطة العثمانية بل كذلك فـي الولايات، ففي العراق شهدت ولاية بغداد في الربع الاول من القرن السابع عشر تمردات كانـت اعنف مما جرى في الولايات الاخرى، ولاشك ان مركز العراق الجغرافي على اطراف الدولـة ووجود قبائل بدوية وكردية متعددو الاجناس والولاء اقتضى زعامـة قويـة وادى الـى اعنـف التمردات التي قامت فيه[٤٠]، فقد استبد العسكر في بغداد وازدادت تعدياتهم حتى انهـم اسـتهانوا بسلطة الوالي حسن باشا مما اضطره الى مغادرة الولاية عام ٩٩١هـ/١٥٨٣م واقام في الموصل ليحارب من هناك عسكر بغداد[٤١].

وقد ازدادت تمردات الجند حتى تمكن احدهم وهو برتبة بلوك باشي ويدعي محمـد بـن احمد الطويل من السيطرة على بغداد عام ١٠١٤هـ/١٦٠٥م، وتمكن من استمالة عدد من زعماء الاكراد والبدو فاصبح من القوة بحيث ان الدولة فشلت في القضاء عليه، اذ تمكن من هزيمة جيش الدولة الذي يقوده والي ديار بكر[٤٢]، لكنه اغتيل فجأة عام ١٠١٦هـ/١٦٠٧م من كاتب ديوانـه ونصب اخاه مصطفى بك مكانه[٤٣]، إلا ان ثورة حدثت في بغداد اطاحت به وانهت سـيطرة آل الطويل التي دامت قرابة خمسة اعوام[٤٤].

وبرز بعد اربعة عشر عاماً متمرد آخر اكثر خطورة وهو من الانكشارية ايضاً ويـدعي بكر صوباشي، وكان هذا قد تنفذ في بغداد واصبح الرجل القوي فيها منذ عام ١٠٢٩هـ/١٦١٦م، واستطاع ان يقتل والي بغداد يوسف باشا، ثم زور منشوراً بأسم السلطان بتوليه على بغـداد[٤٥]، إلا ان الدولة بعد ان علمت بتمرده اصدرت امراً الى حافظ باشا والي ديار بكر ان يـسير الـى بغداد ويقضي على الفتنة، ولما علم الصوباشي بذلك داخله الخوف وكتـب الـى الـشاه عبـاس الصفوي ليناصره، وتكمن خطورة الموقف هنا ان الشاه حاول استغلال الحدث لصالحه، فارسل له المدد اللازم، وكان حافظ باشا قد فضل الصلح بشرط تولي بكر صوباشي ولاية بغداد بـدلاً مـن وقوعها بيد الفرس، ونصب الصوباشي وعاد حافظ باشا الى ديار بكر إلا ان الـشاه لـم يـرض بالامر، وزحف الى بغداد التي دخلها عام ١٠٣٣م/١٦٢٣م وانزل السيف في رقاب اهلهـا، كمـا قتل بكر صوباشي وابنه، فكان تمرده هذا سبباً في عودة الاحتلال الصفوي الثاني لبغـداد والـذي استمر حتى عام ١٦٣٨م[٤٦].

وفي مصر كانت الاوضاع في اضطراب ايضاً، فقد قام العساكر بسلسلة مـن التمـردات وكان هؤلاء خليطاً من الانكشارية والمماليك الجراكسة ومن اصحاب المرتبات الذي قاسـوا مـن انخفاض قيمة العملة التي اخذ امرها بالاختلال في ارجاء الدولة كافة[٣٧]، وكان الـسلطان سـليم الاول قد ترك السلطة في مصر بيد ثلاث قوى هي: الباشا العثماني والذي اصبح في نهاية القرن السادس عشر والسابع عشر لا حول ولا قوى، وقوة الجيش واهمها القوة الانكشارية، ثـم بقايـا المماليك في مصر والذين زاد نفوذهم تدريجياً على حساب سلطة الدولة المتمثلة بالباشا وحكمـوا البلاد حكماً فعلياً[٤٨].

وشهد العام ١٠١٣هـ/١٦٠٤م تمرداً من الانكشارية راح ضحيته الوالي ابـراهيم باشـا الذي علقت جثته على باب زويله، ثم اعقبه تمرداً آخر على عهد الوالي محمـد باشـا (١٦٠٧-١٦١١م) والذي يعرف في التاريخ بأسم (محطم المماليك)، اتخذ هذا التمرد في عام ١٦٠٩م شكلاً انفصالياً لاسيما ان المتمردين عينوا من بينهم سلطاناً ووزراء، إلا ان قدرة هذا الوالي على قمـع التمرد عززت موقف الدولة العثمانية في مصر اذ لم تتجرأ قوة على تحدي سلطة الدولة إلا فـي عهد علي بك الكبير[٤٩].

اما في المغرب العربي، فقد سيطرة الانكشارية على الجزائر منذ مطلع القـرن الـسابع عشر فأصبح الداي الذي تنتخبه هذه الفرقة هو الحاكم الحقيقي، اما الباشا الذي يمثل سلطة الدولـة اقتصر دوره على اسداء المشورة[٥٠]، وكان يمثل الانكشارية الديوان الذي كانت لقراراتـه قـوة

القانون[٥١]، وقد استأثر الدايات بالسلطة وحكموا البلاد حكماً مطلقاً، مما اطمع فرنسا في احـتلال الجزائر فهاجم اسطولها سواحل الجزائر، فتصدت له قوات الجزائر بقيادة اغا الانكشارية (شعبان اغا) وذبح بالسيف (٢٠٠٠) فرنسي وهرب البـاقون، وقـد جـرى هـذا الحـادث فـي عـام ١٠٧٥هـ/١٦٦٤م، وصار له صدى كبيراً بحيث لم يتمكن الفرنسيون من تحقيق انزال آخر على الجزائر إلا عام ١٢٤٦هـ/١٨٣٠م[٥٢].

وفي تونس كان الامر مشابهاً لما عليه في الجزائر فقد كانت السيطرة للانكشارية الـذي قضوا جل اوقاتهم في الفتنة والشغب واغتصاب اراضي الاهالي والامتناع عن دفـع الـضرائب للدولة، ولم تكن هناك امكنية لاصلاح هذا الامر طالما ان المسيء هو المسؤول، وقد ثار هـؤلاء الانكشارية في عام ٩٩٩هـ/١٥٩١م وقتلوا اعضاء الديوان واجروا تغييرات في نظام الحكم[٥٣]، وبعثوا شخصاً من العسكريين حاكماً على تونس ولقبوه بالـداي فاضـطرت الدولـة العثمانيـة للاعتراف به حاكماً على تونس[٥٤]، وبذلك اوجد هؤلاء سلالات لأسر حاكمة فـي تـونس، فقـد استطاع احدهم ويدعي مراد بك عام ١٠٥٠هـ/١٦٤٠م من جعل الحكم وراثيـاً فنـشأت بـذلك الاسرة المرادية (١٦٤٠-١٧٠٥م)[٥٥].

اما في طرابلس الغرب فقد ثار الانكشارية لمرات عديدة في النصف الثاني مـن القـرن السادس عشر، وقد اضطرت الدولة العثمانية الى ارسال تعزيزات عـسكرية لاسـتتاب الوضـع وحتى عام ١٠١٨هـ/١٦٠٩م مارس الانكشارية – كما فعل اقرانهم فـي تـونس والجزائـر – نفوذهم من خلال ديوان الانكشارية، وقد استطاعوا الثورة على الوالي العثمـاني ورفعـوا الـى منصب الداي واحداً من ضباطهم[٥٦]، وهكذا فإن تمردات الانكشارية لم تقتصر على المركز وانما عانت منها ولايات الدولة المختلفة.

ثانياً: اثر الانكشارية في المجال الاقتصادي

كانت الدولة العثمانية تنفق مبالغ طائلة في سبيل تخـريج اعـداد كبيـرة مـن الجنـود الانكشاريين وقد برز اثرهم في فترات معينة من تاريخ الدولة العثمانية حيث جعلهم يـستحوذون على الاهتمام الاكبر في اقتصاد الدولة، ومن العوامل المهمة التي ادت الى هيمنة الانكشارية على اقتصاد الدولة هو إلغاء نظام الدوشرمة بعد ان دخل اليه من لا يـتقن الجنديـة وحمـل الـسلاح بالاضافة الى نمو الاقطاعات والفوضى التي حدثت فيها، حيث مارس اهل الاقطاع التعسف فـي الولايات، لما ابتزوه من اموال بشكل كبير حيث ارهـق الكثيـر مـن الاهـالي فـي الولايـات العثمانية[٥٧].

ان هذا الجيش كان يحتل مكانة كبيرة في دولة قامت وارست دعائم كيانها عن طريق الحروب وفي ساحات القتال في ظل نظام الدوشرمة، وزعت الاراضي الخصبة على الجنود بعد فتح القسطنطينية، وادى الى ازدهار الاقطاع العسكري، واصبح الانكشارية والسباهية يمثلون القوة العسكرية العظمى في الجيش العثماني، وذراع الحكومة المركزية في مختلف اقاليم الامبراطورية وترك سقوط الاق قوينلوا وقيام دولة مشبعة بروح دينية صفوية على يد الشاه اسماعيل الصفوي، اثراً في نفوس الانكشارية الذين وجدوا انهم الاحق في الاستحواذ على اقاليم الاق قوينلو، بدلاً من حكومة الشاه اسماعيل الصفوي، وان سياسة السلطان سليم الاول التي فوتت عليهم الفرصة لتحقيق هذا الهدف ساهمت في مضاعفة الاخطار التي باتت تهدد حدودهم الشرقية(٥٨) وضعفت الحكومة المركزية بعد وفاة السلطان سليمان القانوني، فأصبح المجال واسعاً للتجبر وانطلاق الاطماع وتعسف اصحاب الاقطاعيات المختلفة واسترسالهم في ابتزاز الاموال من الناس، واصبحوا يستخدمون سلطاتهم في سبيل ضمان منافعهم ومنافع اسرهم وجماعاتهم المختلفة(٥٩).

وكانوا يروعون سكان استانبول، وكان موظفوا الباب العالي ينصحون السفراء الاجانب بتجنبهم وعدم التقرب منهم، وعندما كانوا ينتشرون على شكل عصابات في حي من الاحياء، كان التجار يقومون بغلق محلاتهم، وفي اوقات اخرى يستحيل منعهم من نهب مدينة بعد استسلامها(٦٠).

ولم تتوقف اطماعهم عند هذا الحد بل سعوا الى الحصول على الباشوية في سبيل تحقيق الاطماع التوسعية وزيادة موارد الثروة بالاضافة الى الاستعانة بالاجانب مثل الانكليز، كما فعل (احمد اغا) رئيس الانكشارية في بغداد بعد وفاة سليمان الكبير احد الحكام المماليك في العراق(٦١) وهناك منحة السلطان التي يعطيها للانكشارية عند اعتلائه العرش العثماني، ففي البداية كان السلطان هو الذي يعطيهم ويزيد رواتبهم كما فعل السلطان محمد الفاتح بعد فتح القسطنطينية عام (١٤٥٣م) وبعدها اصبح الاجبار على دفع المبالغ الضخمة هو الشيء الاساسي في العملية عند الانكشارية(٦٢)، فضلاً عن منحة السلطان هنالك الرواتب والعلوفات، حيث كان اكثرية الانكشارية يستوفونها من العاصمة استانبول، وبعضهم من بغداد ويقال لهم (قول بغداد) وهو الجيش الاهلي ويميل في ولائه الى الوالي العثماني وليس السلطان العثماني واصبح اكثرية الانكشارية لا يلتزمون بالحضور الى الثكنات العسكرية إلا لاستلام هذه المرتبات والعلوفات. وفي سنة ١٥٨٤م حدثت ثورة للانكشارية بسبب تقديم الدولة رواتب لهم بقيمة مخفضة نتيجة الفوضى النقدية التي ادت الى تخفيضات في العملية العثمانية. وقام الانكشارية بمداهمة القصر السلطاني وطالبوا باعدام

عدد من الاشخاص الذين كانوا مسؤولين عن دفع هذه النقود وقد شاركهم السباهية في هذا التمرد، وادى الى نتائج سيئة على معنويات الجيش وروح التضامن فيه. وراح الجميع يبحث عن غير الراتب وانتشرت الرشوة وانحط المستوى العسكري للنخبة من موظفي الباب وعلماء الشرع الذين كانوا يمثلون ولمدة طويلة قوة الدولة العثمانية[٦٣].

وسمح السلطان مراد الثالث (١٥٧٤-١٥٩٥) في سنة ١٥٨٢ بدخول اعداد كبيرة من المجندين غير المدربين الى اورطة الانكشارية، وادى الى تكليف الخزانة العثمانية بنفقات فوق طاقتها واهمل نظام التدريب العسكري والاداري، وثارت المتاعب واصبح الانكشارية عديموا الجدوى والفائدة في الحرب مع اعداء الدولة العثمانية، ومثالاً للفساد والانحلال[٦٤]. وانحط نظام الاقطاع، ولم يعد الجندي العثماني قادراً على مجابهة الجندي الاوربي الاحسن تنظيماً وتدريباً، واتاح هذا الامر المجال لظهور عناصر مقربة من السلطان الحاكمة استطاعت ان تترف بالارض، وشاع نظام الالتزام، والتلاعب باموال الدولة، وظهور قوى محلية ثائرة تستند في سلطتها من التزام الضرائب ونقصت واردات الضرائب التي كانت تفرض على بضائع الشرق الاقصى المارة في الاراضي العثمانية، واصبحت هذه البضائع تصدر مباشرة الى اوربا، فضلاً عن الضغوط على النقد العثماني، ولم تستطيع موارد الدولة تلبية الحاجة المتزايدة للنقد، وتدفق الذهب والفضة من بلاد العالم الجديد – امريكا – وانهارت قيمة العملة العثمانية (الاقجة) وارتفع سعر الذهب وقامت الدولة باصدار عملة جديدة وهي (البارة) للقضاء على التضخم النقدي[٦٥]، إلا انها فشلت وادت الى ظهور الرشوة بين الناس والجنود بعد اصدار عملة جديدة هي (القرش) مما ادى الى قيام الثورات المحلية التي قام بها العسكريون من اصحاب المرتبات بسبب انهيار قيمة النقد وغلاء المعيشة ونتيجة للازمة الاقتصادية، عمد الانكشارية الى ابتزاز اموال الفلاحين في الارياف لسهولة هذه العملية وقدرتهم على ذلك في محاولة منهم لاغناء انفسهم[٦٦].

ثالثاً: اثر الانكشارية في المجال الاجتماعي

بعد تأسيس نظام الدوشرمة (سباهية الباب العالي) قامت الدولة بتوزيع الاراضي الخصبة اليهم مما ادى الى ظهور طبقة التجار، وهم اصحاب الاراضي الكبرى في الدولة وقد شاركوا مع الجيش الانكشاري في حروب الدولة[٦٧].

ودخل الانكشارية الى المجتمع، وسمح الانتماء الى جيش الانكشارية وراثياً بعيداً عن المقدرة العسكرية[٦٨] وادى ذلك الى تكوين طبقة وراثية متميزة عن غيرها من ناحية، وبدأوا

يفقدون الروح العسكرية من ناحية اخرى. ودخل المسلمين الى الجيش الانكشاري وقل شيئاً فشيئاً انتداب النصارى عن طريق الدوشرمة، واصبحوا ينتدبون عن طريق الرشوة وانقلبوا الى اتجـاه معاكس حين طمعوا في فرض سلطتهم على السلطة الرسمية، بعدان كانوا جنود السلطان الاوفياء الذي نذروا ارواحهم واجسادهم لخدمته(٦٩) واشتغلوا في مهن مختلفة، وسمح لهم بممارسة التجارة وقاموا ببيع تذاكر علوفاتهم الى الناس كما تباع الاسهم والـسندات(٧٠) وقـل ارتبـاطهم بالثكنـة العسكرية حتى ان اكثريتهم لا يذهب اليها إلا لتسليم المرتبات(٧١) ولا يجتمعون إلا لرفع صـوت العصيان بمطالبة زيادة علوفاتهم والعطايا، او بطلب عزل الوزير او السلطان العثمـاني نفـسه، مندفعين في ذلك بتسويات اصحاب المنافع والاغراض الشخصية(٧٢).

وعلى الرغم من صدور الاوامر السلطانية بإخراج العسكريين من الحـرف وقطـع كـل علاقة بين الانكشاري والعامل، إلا ان ذلك اصبح حبراً على ورق، لأن العساكر ازدادوا تماسـكاً وتحدياً للسلطة الحاكمة المتمثلة بالباشا، وتوعدوا كل من يتعاون مع الباشا ولو كان منهم وحـدث الاندماج الواسع بين السكان المحليين والانكشارية عن طريق الزواج او عـن طريـق انتـساب الانكشارية الى اصحاب الحرف او بالعكس ليستفيد كل فريق من الآخر واصبحوا يعرفـون فـي بعض الولايات بأسم (يرلية) وقيل ان اكثرية سكان بغداد قد اصبحوا انكشارية من اجل الحصول على الامتيازات الممنوحة للانكشارية الاوائل(٧٣).

الهوامش

(١) الانكشارية (بالتركية يكيجري) وتعني الجنود الجدد: اسم يطلق على فرق المشاة النظاميين التي كونها العثمانيون في القرن الرابع عشر الميلادي، واصبحت اكبر قوة عندهم مكنتهم من الفتوحات الواسعة التي قاموا بها، كانوا يرتدون زي عسكري، اما لباس الراس عندهم المتكون من قلنسوة من الصوف الابيض تتدلى من خلفها قطعة من القماش رمزاً للبركة التي منحها اياهم مرشدهم حاجي بكتاش. ومنذ عام ١٥٨٢م على عهد السلطان مراد الثالث صار الناس على اختلاف الوانهم يحاولون الانخراط في سلك الانكشارية. هيوار، دائرة المعارف الاسلامية، مادة الانكشارية، ((الترجمة العربية))، ج٣، ص ص٧٦-٨١. وقد اختل نظامهم وضبطهم وازداد تدخلهم في امور الدولة والتجاوز على الناس مما دفع بالسلطان محمود الثاني الى القضاء عليهم في عام ١٨٢٦م. توفيق علي برو، العرب والترك في العهد الدستوري العثماني ١٩٠٨-١٩١٤، (القاهرة، ١٩٦١)، ص٥.

(٢) علي محمد الصلابي، الدولة العثمانية – عوامل النهوض واسباب السقوط، ط٣، دار المعرفة، (بيروت،٢٠٠٦)، ص٧٠.

(٣) اندري كلو، سليمان القانوني، تعريب محمد الرزقي، دار التركي للنشر، (تونس، ١٩٩١)، ص ص٢٩-٣٠.

(٤) رجب حراز، الدولة العثمانية وشبه جزيرة العرب (١٨٤٠-١٩٠٩)، المطبعة العالمية، معهد البحوث والدراسات العربية، (مصر، ١٩٧٠)، ص١٤.

(٥) سباهي: اصطلاح عسكري مأخوذ من الكلمة الفارسية (سباه) بمعنى جيش، يطلق على جنود الخيالةالذين يتم تجهيزهم من قبل اصحاب الاقطاعات العسكرية للمشاركة في الحرب، ويختلف عدد هؤلاء وفقاً للدخل السنوي للاقطاع. هيك، دائرة المعارف الاسلامية، مادة سباهي، ((الترجمة العربية))، ج١، ص٢١٤.

(٦) عبد الأمير الرفيعي، العراق بين سقوط الدولة العباسية وسقوط الدولة العثمانية، ط١، دار الفرات للنشر والتوزيع، (بيروت، ٢٠٠٢)، ص٢٦١.

(٧) محمد فريد بك المحامي، تاريخ الدولة العلية العثمانية، دار الجيل للطباعة والنشر، (بيروت، ١٩٧٧)، ص٥٢.

(٨) المصدر نفسه، ص٥٣.

(٩) الرفيعي، المصدر السابق، ص٢٦١.

(١٠) برناردين كلتي، فتح القسطنطينية، ترجمة: شكري محمود نديم، مكتبة النهضة، (بغداد، ١٩٦٢)، ص٢٨٦.

(١١) الصلابي، المصدر السابق، ص١٦١.

(١٢) الرفيعي، المصدر السابق، ص٢٨١.

(١٣) احمد عبد الرحيم مصطفى، في اصول التاريخ العثماني، ط٢، دار الشروق، (بيروت، ١٩٨٢)، ص٦١.

(١٤) كلاو، المصدر السابق، ص٣٥٩.

(١٥) عبد الكريم رافق، بلاد الشام ومصر من الفتح العثماني وحتى حملة نابليون بونابرت، دراسات في تاريخ العرب الحديث، ط٢، (دمشق، ١٩٦٨)، ص٣٦. للمزيد من المعلومات ينظر: مجلة الهلال، "تاريخ الجند العثماني"، ((مصر))، ج(٨)، س(١٧)، ايار ١٩٠٩.

(١٦) صالح حسين الجبوري، السلطان مراد الرابع (١٦٢٣-١٦٤٠)، مكتبة الحكماء الذهبية، (بغداد، ٢٠٠٢)، ص٥٠.

(١٧) الصفويين: نسبة إلى الشيخ صفي الدين اسحاق الاردبيلي (١٢٥٣-١٣٣٤) الذي ينحدر من اسرة معروفة في اردبيل باذربيجان، اسس طريقة صوفية، وبعد وفاته تولى المشيخة ولده صدر الدين موسى (١٣٣٤-١٣٩١) ثم ولده خوجة علي (١٣٩١-١٤٢٩) ثم ولده ابراهيم (١٤٢٩-١٤٤٧) ثم ولده جنيد (١٤٤٧-١٤٦٠) عندما بدأت الحركة تأخذ طابعاً سياسياً، ثم تولى الزعامة ولده حيدر (١٤٦٠-١٤٨٨) الذي اعتمد لبس العمامة الحمراء، ثم البسها لاصحابه فسماهم الناس بـ (القزلباش) اي اصحاب الرؤوس الحمراء، وشرع اسماعيل بن حيدر من عام ١٤٨٨ في توسيع حدود حكمه حتى تمكن من تأسيس دولته التي حكمها بين عامي (١٥٠١-١٥٢٤) واتخذ لنفسه لقب (شاه) كما اتخذ من تبريز (الواقعة شمال غرب بلاد فارس) عاصمة لدولته وجعل التشيع مذهب الدولة الرسمي. للمزيد من المعلومات، ينظر: السيد احمد بن زيني دحلان، الفتوحات الاسلامية بعد مضي الفتوحات النبوية، ج٢، (مصر، ١٣٤٥هـ)، ص ص١٥٠-١٥٩.

(١٨) للمزيد من المعلومات، ينظر: جاسم محمد حسن العدول، الدولة العثمانية ابان حكم السلطان سليم الاول ١٥١٢-١٥٢٠، اطروحة دكتوراه غير منشورة قدمت الى كلية التربية في جامعة الموصل، ٢٠٠٤.

(١٩) الصلابي، المصدر السابق، ص٢٣٨.

(٢٠) كلو، المصدر السابق، ص٣٦٠.

(٢١) للمزيد من المعلومات، ينظر: طارق احمد شيخو الهسنياني، الدولة العثمانيـة والمـشرق العربي في عهد السلطان سليمان القانوني ١٥٢٠-١٥٦٦، رسالة ماجستير غير منـشورة قدمت الى كلية التربية في جامعة الموصل، ٢٠٠٨، ص ص١٩-٣١.

(٢٢) دونالد كواترت، الدولة العثمانية ١٧٠٠-١٩٢٢، تعريب: ايمن الارمنـازي، (الريـاض، ٢٠٠٤)، ص١٠٠.

(٢٣) عبد العزيز الشناوي، الدولة العثمانية دولة اسـلامية مفتـرى عليهـا، ج١، (القـاهرة، ١٩٨٠)، ص٥١٣.

(24) Mustafa Ozden, “Yenicerilik isyanlari Ve Vaka-I Harriye”, Turk Dunyasi Turih Dergisi, Sayi, 109, Ocak 1996, S.36.

(٢٥) يلماز اوزوتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ترجمة: عدنان محمود سلمان، ج١، (اسـتانبول، ١٩٨٨)، ص٤٥٨.

(٢٦) نسيبة عبد العزيز عبدا الحاج علاوي، الاتجاهات الاصـلاحية فـي الدولـة العثمانيـة ١٦٢٣-١٧٨٩، اطروحة دكتوراه غير منشورة قدمت الـى كليـة الاداب فـي جامعـة الموصل، ٢٠٠٦، ص٨٦.

(٢٧) للمزيد من المعلومات عن الحملة التي شنها السلطان عثمان الثاني على بولونيا، ينظـر: احمد زيني دحلان، الفتوحات الاسلامية بعد مضي الفتوحات النبوية وبهامـشه خلاصـة الكلام في امراء البلد الحرام، ج٢، (مكة، ١٣١١هـ)، ص ص١٣-١٤.

(٢٨) محمد خاوصي الناصري، البيان في تاريخ آل عثمان، (بغداد، ١٣٣١هـ)، ص٥٨.

(٢٩) سيد مصطفى، نقد حالة الفن العسكري والهندسة والعلوم في القسطنطينية، تحقيق: خالـد زيادة، (بيروت، ١٩٧٩)، ص١٢.

(٣٠) علاوي، المصدر السابق، ص٨٧.

(٣١) كواترت، المصدر السابق، ص١٨٦.

(٣٢) اوزوتونا، المصدر السابق، ص٤٦١.

(٣٣) ابراهيم افندي، مصباح الساري ونزهة القاري، (بيروت، ١٢٧٥هـ)، ص١٥٤.

(٣٤) من اصل بوسني، تولى مناصب في الدولة، وقد اختاره الانكشارية صدراً اعظمـاً فـي التمرد الذي قاده ضد السلطان عثمان الثاني، للمزيد من المعلومات، ينظر: دائرة المعارف الاسلامية، مادة (داؤد باشا)، مجلد (٩)، ص ص١٢٦-١٢٧.

(35) Ozden, A.G.E., S.36.

(٣٦) علاوي، المصدر السابق، ص٨٨

(37) Edward S. Creasy, History of the Ottoman Turks from the beginning of their Empire to the present time, (London, 1878), pp.248-249.

(٣٨) الشناوي، المصدر السابق، ص ص٥١٤-٥١٥.

(٣٩) علاوي، المصدر السابق، ص٨٨.

(٤٠) عبد الكريم رافق، العرب والعثمانيون ١٥١٦-١٩١٦، (دمشق، ١٩٧٤)، ص١٣٦.

(٤١) عباس العزاوي، تاريخ العراق بين احتلالين، ج٤، (بغداد، ١٩٥٥)، ص ص١٤٥-١٤٦.

(٤٢) ستيفن همسلي لونكريك، اربعة قرون من تاريخ العراق الحديث، ترجمة: جعفـر خيـاط، ط٦، (بغداد، ١٩٨٥)، ص٣٤.

(٤٣) رافق، العرب والعثمانيون، ص١٣٧.

(٤٤) مرتضى نظمي زادة، كلش خلفا، ترجمة: موسـى كـاظم نـورس، (النجـف، ١٩٧١)، ص٢١١.

(٤٥) علي ظريف الاعظمي، مختصر تاريخ بغداد القديم والحديث او بغداد فـي ٤٠٠ سـنة، (بغداد، ١٩٢٦)، ص١٨١.

(٤٦) علاوي، المصدر السابق، ص٩٠.

(٤٧) رافق، العرب والعثمانيون، ص١٣٢.

(٤٨) انور الرفاعي وشاكر مصطفى، العالم الحديث، (دمشق، ١٩٥٠)، ص ص٢٨٧-٢٨٨.

(٤٩) علاوي، المصدر السابق، ص٩١.

(٥٠) محمد جميل بيهم، الحلقة المفقودة في تاريخ العرب، (القاهرة، ١٩٥٠)، ص١٠٠.

(٥١) رافق، العرب والعثمانيون، ص١٢٨.

(٥٢) اوزوتونا، المصدر السابق، ص٥٠٩.

(٥٣) حسين خوجة، ذيل بشائر اهل الايمان بفتوحات آل عثمـان، تحقيـق وتقـديم: الطـاهر المعموري، (ليبيا، د.ت)، ص٢٢.

(٥٤) ابراهيم خليل احمد، تاريخ الوطن العربي في العهد العثماني ١٥١٦-١٩١٦، (الموصـل، ١٩٨٦)، ص١٠٥.

(٥٥) علاوي، المصدر السابق، ص٩٢.

(٥٦) رافق، العرب والعثمانيون، ص١٢٩.

(٥٧) حسن العطار، الوطن العربي – دراسة مركزة لتطوراته السياسية الحديثة، ط٢، مطبعـة اسعد، (بغداد، ١٩٦٦)، ص ص١١-١٢.

(٥٨) الرفيعي، المصدر السابق، ص ص٢٨١-٢٨٦.

(٥٩) ساطع الحصري، البلاد العربية والدولة العثمانية، ط، دار العلـم للملايـين، (بيـروت، ١٩٦٠)، ص٤٩.

(٦٠) كلو، المصدر السابق، ص٣٠.

(٦١) علاء موسى كاظم نورس، حكم المماليك في العراق ١٧٥٠-١٨٣١، منـشورات وزارة الثقافة والاعلام، دار الحرية للطباعة، (بغداد، ١٩٧٥)، ص٥٩.

(٦٢) مصطفى، المصدر السابق، ص١٢٥.

(٦٣) الجبوري، المصدر السابق، ص ص٥٠-٥٢.

(٦٤) مصطفى، المصدر السابق، ص ص١٣٦-١٣٨.

(٦٥) الجبوري، المصدر السابق، ص٥١. كانت الاقجة = ثلث بارة، والقرش = ٤٠ بارة. كلو، المصدر السابق، ص٤٦.

(٦٦) رافق، العرب والعثمانيون، ص ص١٨٢-١٨٨.

(٦٧) الرفيعي، المصدر السابق، ص٢٨٦.

(٦٨) حراز، المصدر السابق، ص١٥.

(٦٩) كلو، المصدر السابق، ص ص٣٤٧-٣٤٨.

(٧٠) الحصري، المصدر السابق، ص٤٩.

(٧١) حراز، المصدر السابق، ص١٥.

(٧٢) الحصري، المصدر السابق، ص ص٤٧-٤٨.

(٧٣) رافق، العرب والعثمانيون، ص ص٢٨-٣٠.